ورقة حول التّعليم التّحرُّري[1]

بشار الخطيب

قبل الخوض في مفهوم التّعليم التّحرُّري (Emancipatory Education) لا بدّ من التّمييز بين مفهومي "الحريّة الشّخصيّة" و"التّحرُّر الذّاتي"؛ فالحريّة الشّخصيّة، وبأبسطِ شكلٍ مُمكن، يُقصد بها حريّة الفرد في اختيار ما يتعلّق بنمط حياته من ملبسه ومأكله ومكان سكنه وطبيعة عمله وحركته وتنقُّله، إلخ؛ أمّا التّحرُّر الذاتي فهو النّتيجة المرجوّة من التّعليم التّحرُّري، ويرتبط بمواجهة الإقصاء والتّهميش والظُّلم في المُجتمعات عن طريق تقديم وجهة نظر مُختلفة في التّعامُل مع عمليّتي التّعليم والتّعلُّم.

نشأ مُصطلح التّعليم التّحرُّريعلى يد الفيلسوفوالمُعلِّم البرازيلي باولو فريري بعد نشر كتابه "تعليم المقهورين" باللغة البرتغاليّة سنة 1968، وتُرجِم الكتاب إلى اللغة الإنجليزيّة سنة 1970،ويُعدُّ الكتاب أحد أهم المراجع الأساسيّة في مجال "التعليم النّقدي" أيضاً.لقد تمّ العمل على تطوير مفهوم التّعليم التّحرُّريأيضاً من قبل العديد من الباحثين الأكاديميين، وفلاسفة ومُطوِّري نظريّة التّعلُّم والعديد من المؤسّسات منذ ذلك الوقت.

يستهدف التّعليم التّحرُّري الكبار فقط، وهم من اصطُلح على أنّهم من أتمّوا الثّامنة عشر من العمر، ولا يستهدف الأطفال وطُلاّب المدارس. يتمحور التّعليم التّحرُّرِي حول كيفيّة تأثير التّعليم والمعرفة على حياة الأفراد والجماعات من خلال مُساعدتهم على مواجهة التّهميش الاجتماعي والتّمييز والظُّلم الاقتصادي والسّياسيللعمل على إحداث التّغيير الاجتماعي.

يجب أيضاً التّمييز بين التّعليم التّحرُّري والتّعليم الحر (Liberal Education)، فبالرّغم من أنّ التّعليم الحر يتّفق مع التّعليم التّحرُّري في بعض الأدوات المُستخدمة، كالفنون مثلاً، إلاّ أنّه يختلف جذريّاً في ما تبقّى من التّفاصيل، حيثُ يستهدف التّعليم الحر جميع الفئات العمريّة، من ضمنها طُلاّب المدارس؛ لكنّ الاختلاف الأكبر هو أنّ التّعليم الحر يقع ضمن قالب التّعليم التّقليدي، وفي الكثير من الأحيان يكون جزءاً منه، وهو يستهدف الفئات المُهمّشة بالدّرجة الأولى، وخصوصاً في الدُّول المُتقدِّمة اقتصاديّاً؛ بينما يستهدف التّعليم التّحرُّري المقموعين (مُخرجات التّعليم التّقليدي) بغضّ النظر عن فئتهم الاجتماعيّة وخارج إطار التّعليم التّقليدي.

[1] تتضمّن هذه الورقة شرحاً مُبسّطاً جدّاً لمفهوم "التّعليم التّحرُّري"، وهي موجّهة لفئة الشّباب.

يقوم باولو فريري من خلال كتابه بتحليل العلاقة بين "القاهِر" و"المقهور" أو "القامِع" و"المقموع"، بحيثُ يَعتبر أنّ التّعليم التقليدي، وهو ما أسماه "التّعليم البنكي"، يتعامل مع المُتعلِّم على أنّه وعاءٌ فارغ جاهز ليتمّ ملؤه بالمعرفة (إيداع المعلومات)، بالتّالي فهو قائم على نقل المعلومات؛ بينما في التّعليم التّحرُّري يجب التّعامُل مع المُتعلِّم على أنّه شريك في عمليّة إنتاج المعرفة، وبالتّالي فالمُتعلِّم شريك في التّغيير الاجتماعي والتّحرُّر الذّاتي. مثلاً، يحصُل الطّالب الجامعي داخل المؤسّسة التّعليميّة على معلومات مُعدّة مُسبقاً وحسب خطّة دراسيّة مُحدّدة حول المواضيع المعرفيّة في مجال الاختصاص ويتعامل مع هذه المعلومات على أنّها مُسلّمات وسيتم تقييم مدى معرفته بها من خلال الامتحانات؛ بينما قد يُشارك الطّالب نفسه في ورشة عمل تستخدم إسلوب التّعليم التّحرُّري، قد تكون حول المسرح كوسيلة تعبير عن الذّات، بحيثُ يُشارك هذا الفرد في العمليّة التّعليميّة سواءاً في إعداد النّص والمسرحيّة ومناقشة كيفيّة عرضها وتقديم المُقترحات، وبالتّالي هذا سيُساهم في تحرير فكر هذا الفرد من خلال مُشاركته كمُتعلِّم ومُعلِّم في نفس الوقت، وتنطبق نفس الحالة على الشّخص المسؤول ع قيادة هذه العمليّة، فهو مُعلِّم ومُتعلِّم في نفس الوقت.

تعدّدت النّظريات حول تطبيق التّعليم التّحرُّري بحسب التوجُّه الفكري للباحث أو المؤسّسة، فيرى البعض أنّ "المقهورين" هم الفقراء المُهمّشون والمحرومون من الفُرص، ويرى آخرون أنّ "المقهورين" هم من مرّوا بتجربة التّعليم التّقليدي ولم تتسنّى لهم فرصة التّوسيع من آفاقهم بسبب نوع التّعليم الذي تلقّوه.مثلاً، تتحدّث إحدى النّظريّات حول التّعليم البنكي عن تحوُّل الجامعات إلى مؤسّسات مُرتبطة بالقطاع الخاص الرّأسمالي، بحيثُ أصبحت تسعى إلى الرّبح المادّي، وبالتّالي تقوم بالتّركيز على الاختصاصات التي يكثُر الطّلب عليها مثل: الطّب، الهندسة، أنظمة المعلومات، إلخ؛ ويتم إهمال الاختصاصات الإنسانيّة مثل: علم الاجتماع، الفلسفة، علم الإنسان، الفنون، إلخ؛ مع العلم أنّ الاختصاصات الإنسانيّة تُعتبر هي ما يفتح آفاق الإنسان ومداركه ومعرفته،وتُوجِّهُه نحو نبذ الظُّلم والتّغيير الاجتماعي. بالتّالي، يتخرّج الطُّلاب بكمٍّ من المعلومات الفنيّة والتّقنيّة التي تُساهم في دعم رأس المال، ولكنّهم يكونون مُفرغين من أيّة معرفة مُتعلِّقة بتحرير الذّات ونبذ الظُّلم.

يعتبر الكثير من المُنظّرين في مجال التّعليم التّحرُّري أنّ نمط التّعليم البنكي (التّعليم التّقليدي) هو النّمط المُفضّل من قبل الأنظمة السُّلطويّة أو الأشخاص السُّلطويين داخل الأنظمة؛ بحيثُ يتم إيداع (احتواء) الأشخاص داخل النّظام والحدّ من تفكيرهم النّقدي، فتكون عمليّة تطويعهم أكثر سهولةً، بمعنى أنّ الشّخص يُصبح أكثر انصياعاً للنّظام؛ بينما يتمحور التّعليم التّحرُّري حول ممارسة الحريّة ونقد المُجتمع والتّرويج للإنسانيّة عن طريق الاطّلاع والبحث والمعرفة.

هنالك أيضاً خلاف حول استخدام تسمية التّعليم (Education) والتّعلُّم (Learning)، حيثُ يرى البعض أنّ استخدام مُصطلح التّعلُّم يقترح أنّ التّحرُّر الذّاتي مسؤوليّة شخصيّة تقع على الفرد، فهو/هي من يجب أن يعمل على تحرير فكره/ها. يختلف الكثير من المنظّرين للتّعليم التّحرُّري مع هذا الرّأي، حيثُ يعتبرون أنّ الأفراد ضحيّة التّعليم التّقليدي، فهم لا يمتلكون الأدوات اللازمة للمرور بعمليّة التّعلُّم التّحرُّري، بالتّالي تكون مسؤوليّة المُعلِّمين، سواءاً كانوا أفراداً أو مؤسّسات، تقديم التّعليم التّحرُّري كخطوة أولى تتضمّن وضع الأُسس لمُشاركة الجميع كمُعلِّمين ومُتعلِّمين في نفس الوقت، ثمّ يأتي دور الفرد بعد ذلك ليبدأ عمليّة التّعلُّم الذّاتي. لكنّ هؤلاء المنظّرين، وفي نفس الوقت، يُحذِّرون المُعلِّم من الوقوع في فخ التّعليم التّقليدي وتقديم مواد تلقينيّة،بحيثُ يجب التّركيز على التّشارُكيّة في التّعليم والتّعامُل مع المُتعلِّم على أنّهُ شريك، والتّأكيد على الدّمج المُستمر للنّقد في عمليّة التّعليم التّحرُري، سواءاً جاء هذا النّقد من المُعلِّم نفسه أو من المُتعلِّم، فيكون المُعلِّم مُتعلِّماً والمُتعلِّم معلِّماً (المُعلِّم الطّالب والطُّلاّب المُعلِّمون، بحسب فريري).

فيما يتعلّق بالتّعليم التّحرُّري في المنطقة العربيّة، هنالك العديد من التّجارُب في مجال التّعليم التّحرُّري؛ وتقع هذه التّجارُب ضمن فئتين: الفئة الأولى هي البرامج التّدريبيّة التي تُقدّمها المؤسّسات التي انتهجت التّعليم التّحرُّري، وهي عادةً ما تكون فاعلةً ومؤثّرةً في بداياتها، ولكنّها تتحوّل مع الوقت إلى مواد تلقينيّة، وبالتّالي الوقوع في فخّ التّعليم التّقليدي. الفئة الثّانية هي البرامج المُرتبطة باستخدام الفنون، بحيثُ يلعب المُتعلِّمون دوراً رئيساً في عمليّة التّعلُّم وتشكيل المادّة التّعليميّة،ولكنّ مشكلة هذه البرامج أنّها تخلوا من الاستمراريّة والاستدامة، حيثُ يتم تنفيذُها لمرّة واحدة فقط في أغلب الأحيان.

في النّهاية، فإنّ التّعليم التّحرُّري هو وسيلة للشُّعوب للتّحرُّر من القمع والظُّلم على جميع الأصعدة، سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً عن طريق تحفيز الفكر النّقدي لدى أفراد المجتمع والتّأكيد على استخدامه في كافّة مناحي الحياةلفتح الآفاق الفكريّة للأفراد حولالعمل مع المُجتمع بشكلٍ جماعيٍّ وجمعي للوصول إلى التّغيير المنشود.